موسوعة تاريخ مصر

مصر الإسلاميّة

إعداد: هشام الجبالي



مرحبا بأصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر.

أسمى **«نيل»** وُجدت منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباءكم فى مسيرة العمل من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ما هو مصرى فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقى والتحضر، أعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة **«تاريخ»** كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات **«تاريخ»** وحوادث مصر وأخبارها.

موسوعة تاريخ مصر

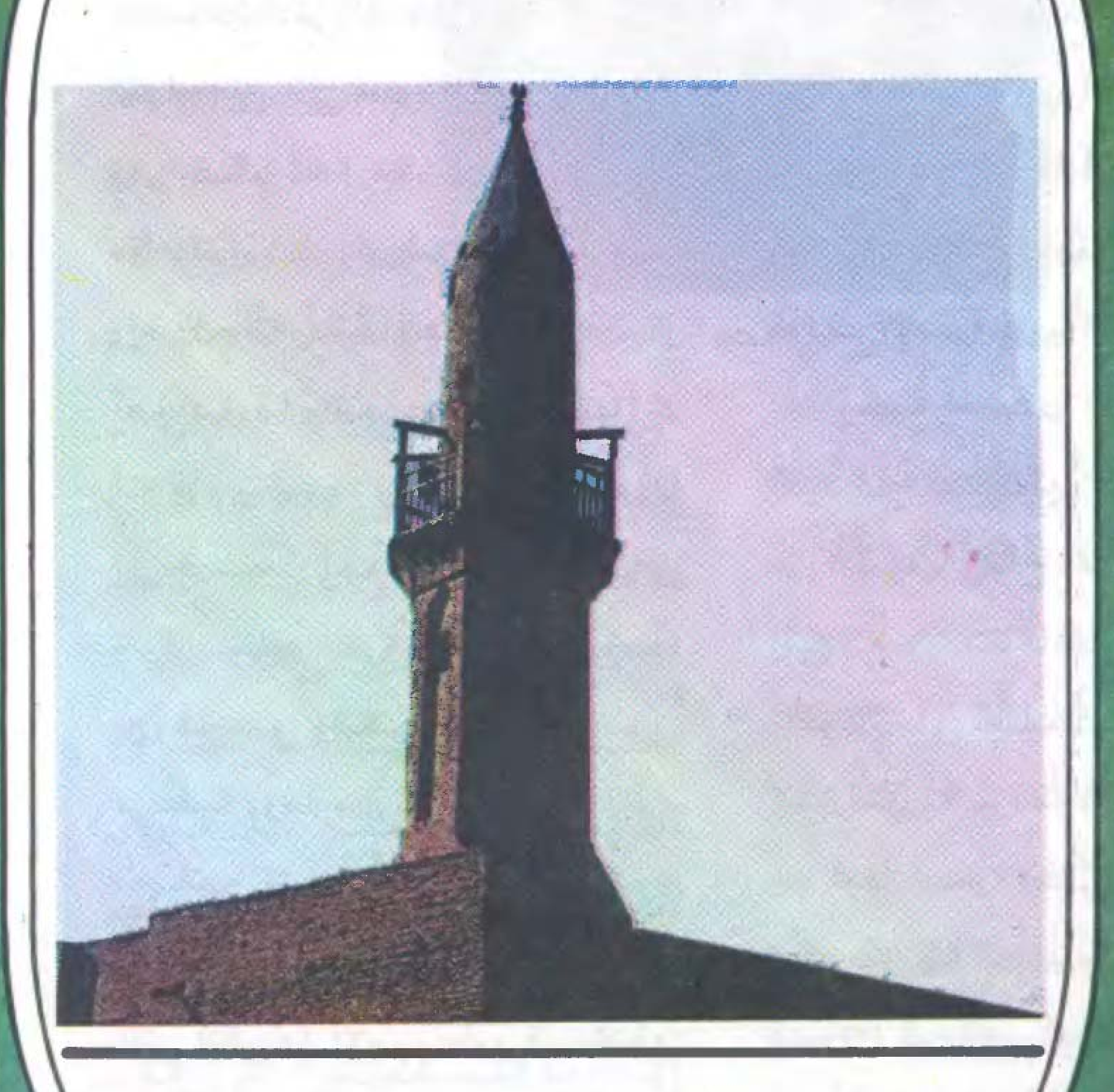
المُحرر : هشام الجبالى | **الجمع التصويرى** : المكتب العربى للمعارف

الرسوم الداخلية : علاء حجازى | **الإخراج** : المكتب العربى للمعارف

هانى طه - إيهاب وصفى - حنان فتحى | **رقم الإيداع** : ١٩٩٤/٥٤٤١

المراجعة اللغوية : شوقى هيكل | الترقيم الدولى : I.S.B.N: 977-276-018-5

مصر الإسلامية



إعـداد: هشـام الجبـالي

موسـوعـة تـاريخ مصـر

بعدَ مرورِ أكثرَ منْ ثلاثمائةٍ وخمسين عامًا على بدايةِ الاحتلالِ الرومانىِّ لأرضِ الفراعنة، مالت شمسُ روما إلى الغروبِ متأثرةً بتراكُمِ مشكلاتِهَا فِى الداخلِ وتدفُّقِ الغزاةِ المهاجرين على حدودِ ولايَتِهَا الغربية، وفِى عامِ ٢٨٤ جلسَ الإمبراطورُ دقلديانوس على عرشِهَا فكانت قوانينُه وإصلاحاتُه بدايةَ الإعلانِ عن انحسارِ أمجادِ روما وانتهاءِ عهدِ سيادَتِهَا؛ إذ إنه قامَ بتقسيمِ ولاياتِ الإمبراطوريةِ إلى قسمَيْنِ أحدُهما غربىٌّ والثانى شرقىٌّ ليظهرَ الفرقُ مع الوقتِ واضحًا بين فوضى وفقرِ الجانبِ الغربىِّ بزعامةِ روما من ناحيةٍ ونظامٍ وثراءِ الجانبِ الشرقىِّ من ناحيةٍ أخرى بزعامةِ القسطنطينيةِ العاصمةِ الجديدةِ التى أنشأها الإمبراطورُ قسطنطينُ الأولُ لتخرجَ من قصورِهَا أوامرُ الحكمِ والإدارةِ منذُ عامِ ٣٣٠، وشيئًا فشيئًا ابتعد قسطنطينُ الأولُ وخلفاؤُهُ على عرشِ القسطنطينيةِ عن روما وولاياتِ الغربِ التى أنهكتها المتاعبُ والأخطارُ، وحينما سقطَتْ روما مع بقيةِ ولاياتِ الغربِ فى يَدِ الغزاةِ عامَ ٤٧٦ كانت الولاياتُ الشرقيةُ منتظمةً تمامًا فى عقدِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ التى ورثت عن روما أملاكَها ونفوذَها فى هذه الولاياتِ، ومع بدايةِ إرساءِ قواعدِ الإمبراطوريةِ الجديدةِ تنفست المسيحيةُ نسماتِ الأمنِ والانتشارِ حيثُ دفعَ قسطنطينُ الأولُ الاضطهادَ عن أتباعِهَا وأباح اعتناقَهَا والدعوةَ إليها مما أعطاها فرصةَ الانتشارِ والتوغلِ حتى أصبحت الديانةَ الرسميةَ لإمبراطوريةِ بيزنطة فى جميعِ ولايَتِهَا بما فيها مصرُ، وحتى عامِ ٣٧٩ تولَّى حكمَ بيزنطة قسطنطينُ الأولُ وأفرادُ أسرَتِه، ثم تلاهم ثيودوسيوسُ الأولُ وأسرتُه التى تتابعَ أباطرتُهَا على عرشِ القسطنطينيةِ الواحدُ من بعدِ الآخَرِ، لاتجنى مصرُ من وراءِ حكمِهِمْ إلا

ازديادَ المتاعبِ وتفشّى المعاناةِ والفقرِ تحتَ وطأةِ فسادِ الإدارةِ وكثرةِ الضرائبِ، فقد انتقلت بلادُ الفراعنةِ من التبعيةِ لروما وإمبراطوريّتِها إلى التبعيةِ للقسطنطينيةِ كإحدى ولاياتِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ، فلم تَنَلْ من ذلك التحوُّلِ سوى المزيدِ من الضعفِ والانحلالِ الذى كان قد بدأ يصيبُها مع تدهورِ القوةِ الرومانيةِ منذُ بدايةِ القرنِ الثالثِ الميلادىّ.

وفى العامِ السابعِ من حكمِ أناستاس آخرِ أباطرةِ أسرةِ ثيودوسيوسَ الأولِ، كان آخرُ ما حدثتُكم عنه من رحلاتى إلى بلادِكُمُ التى ما إن خرجْتُ منها مواصلاً تجوُّلِى بين أوطانِ الأرضِ وممالكِهَا فى نهايةِ عامِ ٤٩٨، حتى وجدتُ نفسى ألهثُ خلفَ الأحداثِ التى تسارعَ إيقاعُها فى شتى بقاعِ الدنيا من حولى وكأنَّ العالمَ يستيقظُ لتوِّهِ من نومٍ طويلٍ هادئٍ ليركضَ بكلِّ ما أوتى من إصرارٍ وقوةٍ، وعلى الرغمِ من كثرةِ الأحداثِ المهمةِ فى جهاتِ الأرضِ الأربعِ، تركز جهدى فى هذه الفترةِ المضطربةِ على متابعةِ الصراعِ الضارى الذى اشتعل بين فارسَ وبيزنطةَ، وتعاقبَتْ حلقاتُه تؤكدُ تصاعدَ القوةِ الفارسيةِ ونموَّ سلطانِهَا إلى حدٍّ تهديدِهَا للقسطنطينيةِ التى وقفت موقفَ الدفاعِ عن سيادَتِهَا وأملاكِهَا أمامَ حُمَمِ البركانِ الفارسىِّ فى كثيرٍ

إناء بيزنطى من الفضة – القرن السادس

من الأحيانِ، ولكنه بينما كانت جيوشُ فارسَ وبيزنطةَ تزلزلُ جنباتِ العالمِ تحتَ سنابكِ خيولِهَا، كانت موجاتُ طوفانٍ جللٍ تسرعُ صوبَ الإمبراطوريتَيْنِ المتصارعتَيْنِ من حيثُ لايتوقعُ أحدٌ.

فمن شبْهِ جزيرةِ العربِ جاء الطوفانُ من هذه البقعةِ الصحراويةِ القاحلةِ التى يتفرَّقَ فِى أرجائِهَا على طرقِ التجارَةِ بين الشرقِ والغربِ حولَ عينٍ أو بئرٍ للماءِ مجموعةٌ من المدنِ والقرى المتواضعةِ يشتغلُ سكانُها بأعمالِ التجارةِ والرَّعْيِ، أو يستزرعون جزءًا من أرضِهِمْ بحسبِ ما تتيحُهُ لهم مواردُهم المائيةُ الضئيلةُ محيطين بلدانَهُمْ بالأسوارِ خشيةَ هجماتِ بدوِ الصحراءِ الرحَّلِ الذين احترفوا التجولَ والإغارةَ على مدنِ وقرى شبهِ الجزيرةِ طلبًا للغنائمِ والمراعى، وفى طليعةِ هذه المدنِ وتلك القرى تبرزُ مكةُ بلدةً تجاريةً صغيرةً لم يتجاوزْ عددُ سكانِهَا فى مطلعِ القرنِ السابعِ الميلادىِّ خمسةً وعشرين ألفَ نَسَمَةٍ، كما تبرزُ يثْربُ بموقعِهَا المتميزِ وسكانِهَا الخمسةَ عشرَ ألفًا واحةً ترصِّعُ أرضَها سيقانُ النخيلِ وثمارُهُ وسط صحراءَ مترامِيةِ الأطرافِ يغلبُ عليها لونُ الرمالِ الأصفرُ.

وبين جبال مكةَ تلقَّى محمدٌ صلى الله عليه وسلم رسالةَ الإسلامِ، وراح يخطو أولَ خطواتِ الدعوةِ للدينِ الجديدِ حتى إذا ما جاءَ عامُ ٦٢١ هاجرَ بعقيدَتِهِ ومِن خَلْفِهِ أتباعُه إلى يثربَ، وظلَّ مُقيمًا بها إلى أن أتمَّ دعوتَه وصعدت روحُه إلى جوارِ ربِّهِ عامَ ٦٣٢ تاركًا عقيدةً راسخةً فى صدورِ المسلمين ودولةً فتيةً تتخذُ من يثربَ التى تغيَّرَ اسمُها إلى المدينةِ بعدَ الهجرةِ عاصمةً لَها، ليديرَ خليفتُه أبو بكر الصديقُ شئونَها لعامَيْنِ قبلَ أن

يرحلَ مسلِّمًا القيادةَ لأميرِ المؤمنينَ عـمـرِ بْنِ الخطَّابِ، ومع إمارةِ ابْنِ الخطَّابِ بدأت الأخبارُ القادمةُ من بلادِ العربِ تَرِدُ إلىَّ فى كلِّ موضعٍ تسيرُ إليه قدماى، تنبئُ عن تجمعِ القبائلِ العربيةِ فِى كنفِ الإسلامِ تحتَ رايةِ دولةٍ واحدةٍ تنمو وتتوسَّعُ بسرعةٍ مذهلةٍ لم أستطعْ معها تفسيرَ أو تبريرَ نجاحَاتِهَا المتتاليةِ، وخبراً من بعدِ آخَرَ ازدادت دهشتى وعظمَ تعجبى، فلم أعدْ قادرًا على تصديقِ كلِّ مايصلُنى من أخبارِ هذه الدولةِ الوليدةِ، فقد علمتنى أعوامُ عمرى الطويلِ أنه لكى تقوى أمةٌ من أممِ الأرضِ على تكوينِ مجموعةٍ من الجيوشِ القادرةِ على تحقيقِ انتصاراتٍ باهرةٍ تقلبُ موازينَ القوةِ فى العالمِ، لابد لها وأن تمرَّ بأطوارِ تطوُّرٍ تستنفدُ من حياتِهَا عشراتِ الأعوامِ وخاصةً إذا لم يَكُ لهاَ نصيبٌ وافرٌ من التحضُّرِ يساعدُها على سرعةِ النموِّ والتطورِ، فكيف إذن لهؤلاءِ العربِ أن ينتقلوا من حياةِ التواضعِ والبدائيةِ إلى ميادينِ الغزوِ مواجهين أكبرَ قوتيْنِ على وجهِ الأرضِ فارسَ وبيزنطةَ فى وقتٍ واحدٍ ولم يمضِ على نشأةِ دولتِهِمْ أكثرُ من



خمسةَ عشرَ عامًا؟

مع تزايدِ الانتصاراتِ العربيةِ وعدمِ تصديقى لما تحققُهُ دولتُهم من إنجازاتٍ خارقةٍ لكلِّ مألوفٍ لدىَّ، أحسستُ بحاجتى للذهابِ إلى المدينةِ لأرى بعينى مايدورُ فى جنباتِها من أحداثٍ، وأفتِّشَ عن السرِّ وراءَ بروزِهَا المفاجىءِ لتصبحَ إحدى أهمِّ عواصمِ الدنيا، ولكننى كنتُ كلما هَمَمْتُ بالذهابِ إليها شغلنى من أعمالى مايحولُ بينى وبين أتمام هذه الزيارة حتى جاءَ عامُ ٦٣٩ وجاءتنى معه أبناءُ دخولِ أميرِ المؤمنينَ عمرِ بْنِ الخطَّابِ لبيتِ المقدسِ وتسلُّمِهِ مفاتيحَ هذه المدينةِ العريقةِ من أيدى أهلِهَا بعدَ ما نجحت جيوشُه فى الاستيلاءِ عليها، عند ذلك فقط أسرعتُ إلى أرضِ فلسطينَ التى ما كدتُ أصلُ إليها حتى علمتُ بإعدادِ ابْنِ الخطابِ لجيشٍ يستعدُّ للانطلاقِ من فلسطينَ قاصداً فتحَ بلادِ الفراعنةِ، وبدلاً من الاستفسارِ عمًّا دار فى بيتِ المقدسِ أو اتِّبَاعِ أميرِ المؤمنينَ فى رحلةِ عودَتِه إلى المدينةِ، وجدتُ نفسى فى نهايةِ الأمرِ أسيرُ خلفَ أربعةِ آلافِ مسلمٍ على رأسِهِمُ القائدُ العربىُّ عَمْرُو بْنُ العاصِ صوبَ الأراضى المصريةِ .

اجتازَ جيشُ المسلمينَ شِبْهَ جزيرةِ سيناءَ مستقبلاً شرقَى الدلتا، وهناك توقَّفَ ليواجِهَ أولَ مقاومةٍ بيزنطيةٍ فعالةٍ، سرعانَ ما تغلَّبَ عليها فى مطلعِ عامِ ٦٤٠ قبلَ أن يواصلَ تقدمَه إلى قلبِ الأراضى المصريةِ، بينما توقَّفْتُ أنا عن متابعَتِهِ أقلِّبُ فى رأسى جميعَ ما قد تجمعَ لدىَّ من أخبارِ هؤلاء العربِ المسلمين، فلا أجدُ لانتصاراَتِهِمُ المتعددةِ من تفسيرٍ سوى أن ما يحالفُ دولتَهم الناشئةَ من توفيقٍ وماتحقِّقُه جيوشُها من انتصاراتٍ متواليةٍ ماهو إلا نجاحٌ مؤقتٌ لابد له

من الانحسارِ والتراجعِ، وفيما كنتُ على هذه الحالةِ إذا بى ألتقى بنيلٍ الذى ما إن رآنى حتى أسرعَ يبادرُنى متسائلاً: إلى أين اتجهَ الجيشُ العربىُّ يا أبتى؟

فقلتُ له : لقد اتَّجَهَ صوبَ الجنوبِ يا نيلُ.

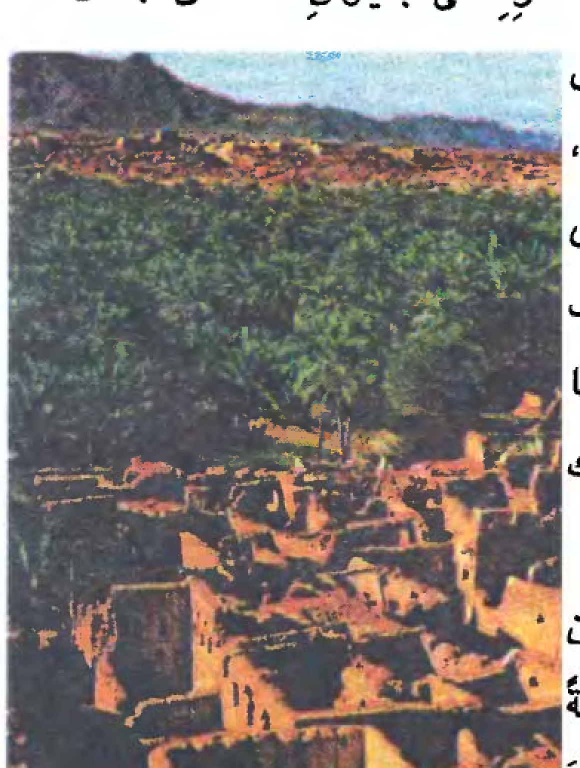
فقال: كنتُ فى الإسكندريةِ حينما جاءت أنباءُ انتصارِهِ على جيوشِ بيزنطةَ هنا فى شرقى الدلتاء، فأسرعتُ من فورى قادمًا لأرى كيف ستسيرُ بينهما المعاركُ بعدَ ذلك الانتصارِ.

فقلتُ له : إن لبلادِكُمْ مكانةً متميزةً وسطَ ولاياتِ بيزنطةَ، وستدفعُ هذه المكانةُ جيوشَ الإمبراطوريةِ للدفاعِ عن امتلاكِهِمْ لها بكلِّ ما لديهم من قوةٍ، وسيُوقِفُ البيزنطيون فى مصرَ دونَ شكٍّ تقدُّمَ جيوشِ العربِ وتتابعِ انتصارَاتِهَا.

وتوقفتُ عن الحديثِ للحظاتٍ، ثم رحتُ أتوجَّهُ إليه متسائلاً: ألن تقصَّ علىَّ قبلَ أن ننشغلَ بمتابعةِ المعاركِ ما جرى من أحداثٍ طوالَ أعوامِ غيابى عن مصرَ؟

فقال : لنلحقَ أولاً بجيشِ المسلمين وسأقصُّ عليك فى الطريقِ كلَّ ماتريدُ معرفتَه.

وبالفعلِ انطلقتُ بصحبةِ نيلٍ فى إثرِ الجيشِ العربىِّ



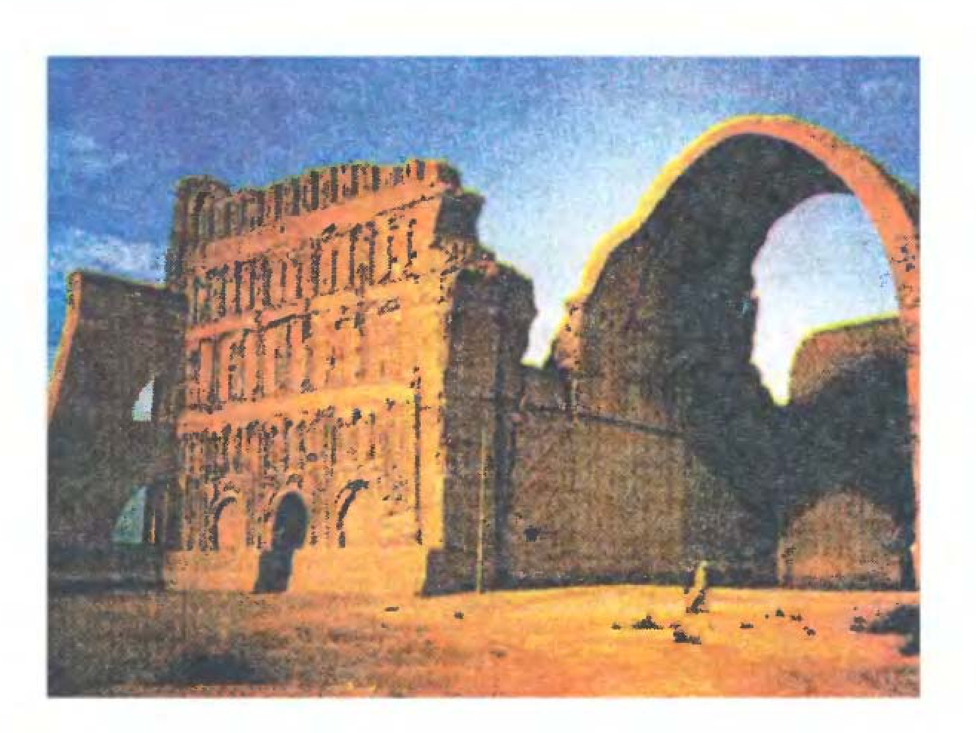
واحه خيبر في يثرب

الظافرِ الذى تقدَّمَ نحوَ رأسِ الدلتا، يزيلُ من أمامِه عوائقَ المقاومةِ البيزنطيةِ جولةً من بعدِ أخرى، وفى الطريقِ دار بيننا حديثٌ بدأتُه قائلاً:
لقد استمرَّ الإمبراطورُ أناستاسُ جالسًا على عرشِ القسطنطينيةِ مايقربُ من سبعةٍ وعشرين عامًا، حتى إذا ما رحل انتهى برحيلِه حكمُ أسرةِ ثيودسيوسَ الأولِ، حيثُ تمكَّنَ جستنُ الأولُ أحدُ كبارِ قادةِ جيوشِ بيزنطةَ من الاستيلاءِ على العرشِ عام ٥١٨، ومع أن الإمبراطورَ الجديدَ الذى كان قد وصل إلى الحكمِ بفضلِ مكانتِه وقُدْرَتِه العسكريةِ لم يَكُ يتمتَّعُ بالكثيرِ من مقوماتِ حاكمِ الدولةِ القادرِ على إدارةِ شئونِهَا، مما جعلَه يستعينُ بابنِ شقيقَتِه جستنيانَ الأولِ فى تصريفِ أمورِ إمبراطوريَّتِه، وقد كان من الطبيعىِّ أن ينفردَ جستنيانُ الأولُ بالحكمِ بعدَ وفاةِ جستنَ الأولِ عامَ ٥٢٧ ليبرهنَ خلالَ أعوامِ حُكْمِه الطويلِ على أنه من ذلك الطرازِ الفريدِ الذى كان منه كلٌّ من قسطنطينَ الأولِ ودقلديانوسَ ومارك أوريليوسَ وأكتافيوسَ من قَبْلِهِمَا حاكمًا قويًا ماهرًا يتمتَّعُ بالقدرةِ على العملِ والرغبةِ فى الإصلاحِ، ولابدَّ لبلادِكِمْ من أن تكونَ قد استَفَادَتْ من مشروعَاتِه الإصلاحيةِ المتعددةِ.

فقال : سعى جستنيانُ الأولُ إلى إصلاحِ أحوالِ إمبراطوريَّتِه والنهوضِ بها، فعَمِلَ على تقويةِ سلطانِ حُكَّامِ ولايَاتِه، ليتمكَّنُوا من تنفيذِ أوامرِ سياسَتِه الإصلاحيةِ، لكنَّ الإدارةَ



البيزنطيةَ فى أكثرِ هذه الولاياتِ ومن بينها مصرُ كانت أضعفَ من أن تتغلبَ على تدهورِ الشئونِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ



خرائب المدائن

لولاياتِهِمْ بعدَ ما صارَتْ مجردَ أداةٍ لجمعِ الضرائبِ وإرسالِهَا إلى خزائنِ القسطنطينيةِ، وبالطبعِ لم تستفدْ بلادُنا من إصلاحاتِ جستنيانَ لأن أغلبَهَا لم يَكُنْ له هدفٌ سوى تنظيمِ استغلالِ ماتبقَّى من ثرواتِهَا وابتكارِ الوسائلِ لاستنفادِ مواردِهَا إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ.

فقلتُ له : قد يكونُ ذلك صحيحًا بالنسبةِ لبلادِكِمْ مع بقاءِ جستنيانَ الأولِ بالنسبةِ للإمبراطوريةِ البيزنطيةِ واحدًا من أعظمِ أباطرتِهَا، فأنت تعلمُ كيف سقطت الولاياتُ الرومانيةُ الغربيةُ فى نفسِ الوقتِ الذى تأكدت فيه سيطرةُ القسطنطينيةِ على الولاياتِ الشرقيةِ، وعلى الرغمِ من أن الأباطرةَ البيزنطيين ظلُّوا يعتبرون أنفسَهم حكَّامًا لجميعِ الولاياتِ الرومانيةِ بعدَ استقلالِهَا تحتَ حكمِ ملوكٍ لم تربطْهُمْ بالقسطنطينيةِ سوى علاقةِ ولاءٍ شكليٍّ

ضعيفٍ لم يوجدْ بينهم مَنْ يحاولُ تخليصَهَا من يدِ الغزاةِ لتكونَ سيطرتُهم على ولاياتِ روما في الشرقِ والغربِ سيطرةً حقيقيةً، إلى أن جاء جستينانُ الأولُ ونجح في تحقيقِ ما عجز أباطرةُ بيزنطةَ السابقون عن تحقيقِه.

فقال : ولكنه أرهقَ بحروبِه من أجلِ السيطرةِ على الولاياتِ الغربيةِ مواردَ إمبراطوريَّتِه وأبعدَها عن الاستعدادِ الجادِّ للخطرِ الفارسيِّ الذي يدقُّ أبوابَ حدودِهَا مهدِّدًا أمنَها وسلامتَها.

فقلتُ له : في الأشهرِ الأخيرةِ من حكمِ الإمبراطورِ جستنَ الأولِ، قام الفرسُ بتجديدِ هجومِهِمْ على حدودِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ وقد استطاع جستنيانُ الأولُ الوقوفَ في وَجْهِ ذلك الهجومِ الذي انتهى أمرُه بعقدِ الصلحِ مع الملكِ كِسرى الأولِ عامَ ٥٣٢، ولكنَّ كسرى الأولَ الذي كان قد تولَّى حكمَ الإمبراطوريةِ الفارسيةِ قبلَ عَقْدِ ذلك الصلحِ بعامٍ واحدٍ لم يلجأْ إلى وقفِ حروبِه مع بيزنطةَ إلا لكي يتيحَ لنفسِه وجيوشِه فرصةً لالتقاطِ الأنفاسِ والاستعدادِ لمعاودةِ القتالِ من جديدٍ، فبعدَ ماوطَّد كسرى الأولُ مكانتَه وأكَّدَ سلطانَه داخلَ إمبراطوريَّتِه، ما لَبِثَ أن راح يفكِّرُ في مدِّ حدودِ بلادِه إلى الشواطيءِ الشرقيةِ للبحرِ المتوسطِ على حسابِ أراضي الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ، وقد ظهرَ واضحًا مدى طُمُوحِه وقدراتِه كأعظمِ مَنْ تولَّى حكمَ فارسَ من أفرادِ الأسرةِ الساسانيةِ حينما انتهزَ فرصةَ انشغالِ جستنيانَ الأولِ بحروبِه في غربَيْ أوروبا وأسرعَ يرسلُ بجيوشِه صوبَ الشرقِ، وعلى الرغمِ من شدةِ الهجماتِ الفارسيةِ وتشتُّتِ جهودِ بيزنطةَ في خوضِ المعاركِ في الشرقِ والغربِ، وقف جستينانُ الأولُ مدافعًا عن سلامةِ

إمبراطوريَّتِهِ بكلِّ بسالةٍ واقتدارٍ حتى توقَّفَتِ المعاركُ فى عامِ ٥٦٢ دونَ أن يحقِّقَ كسرى الأولُ هدفَه فى الوصولِ إلى شواطىءِ البحرِ المتوسط.

فقالَ : ولكنَّه ما إن تُوُفِّىَ جستنيانُ الأولُ بعدَ توقُّفِ حروبِه مع الفرسِ بثلاثةِ أعوامٍ، حتى ظهرت على الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ علاماتُ الوَهَنِ والتدَهْوُرِ.

فقلتُ له : حدث ذلك لأن خلفاءَ جستينانَ الأولِ على عرشِ القسطنطينيةِ جستنَ الثانىَ وطيبريوسَ وموريسَ لم يتمتَّعُوا بشىءٍ من قدراتِهِ ومهاراَتِهِ العمليةِ، حيثُ تحوَّلُوا عن سياسَاتِهِ الإصلاحيةِ وأضاعوا فتوحَاتِهِ فى غربَىْ أوروبا لكى يركِّزُوا جهودَهم على الجبهةِ الشرقيةِ بعدَ اندلاعِ حروبِهِمْ مع فارسَ مرةً أخرى عامَ ٥٧٢، حتى إذا ما انتهى ذلك الطورُ من أطوارِ الحروبِ البيزنطيةِ الفارسيةِ بعقدِ معاهدةٍ جديدةٍ للصلحِ عامَ ٥٩١ كان التدهورُ قد أصاب البناءَ الشامخَ الذى شيَّدَهُ جستنيانُ الأولُ طوالَ أعوامِ حُكْمِهِ الثمانيةِوالثلاثين.



قطعه نسيج مصريه - القرن السابع

فقال : لقد تأثَّرَتْ مصرُ بما أصابَ الإمبراطوريةَ البيزنطيةَ من تدهورٍ عَقِبَ وفاةِ الإمبراطورِ جستنيانَ الأولِ وازدادَتْ متاعِبُهَا فى عهودِ خلفائِهِ مع تجدُّدِ المعاركِ بين بيزنطةَ وفارسَ دونَ أن تقوى واحدةٌ منها على إحرازِ النصرِ الحاسمِ على الأخرى، وفى عامِ ٦٠٢ انتهى حكمُ أسرةِ جستنيانَ الأولِ بقيامِ ثورةٍ على حكمِ

الإمبراطورِ موريسَ، لينتقلَ عرشُ القسطنطينيةِ إلى فوكاسَ الإمبراطورِ الجديدِ الذى علاوةً على عدمِ كفاءَتِه وانعدامِ قُدُرَاتِه على الحكمِ والإدارةِ أتاح للفرسِ بثورَتِه فرصةً لاستئنافِ المعاركِ، إذ استغلَّ كسرى الثانى ملكُ الفرسِ حينئذٍ فرصةَ خلعِ الإمبراطورِ موريسَ ليجدِّدَ القتالَ والاصطدامَ بالإمبراطوريةِ البيزنطيةِ بحجةِ مساعَدَتِه على استردادِ عَرْشِه.

فقلتُ له : لقد اقترب كسرى الثانى من خلالِ انتصاراتِه على الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ فى هذه الفترةِ من تحقيقِ أحلامِ جَدِّهِ كسرى الأولِ، حيثُ أحسنَ استغلالَ الاضطراباتِ التى اشتعلَتْ فى كلِّ أرجاءِ الولاياتِ البيزنطيةِ، وراحت جيوشُه تستولى على أملاكِ الإمبراطوريةِ إلى الحدِّ الذى وصلَتْ معه إلى تهديدِ القسطنطينيةِ نَفْسِهَا، لولا ظهورُ القائدِ البيزنطىِّ هرقلَ الذى قاد الثورةَ ضدَّ حكمِ فوكاسَ، إلى أن تمكَّنَ من خَلْعِهِ والجلوسِ بدلاً منه فى عامِ ٦١٠.

فقال: إن هرقلَ قائدٌ حربىٌّ نشيطٌ يتمتَّعُ بقدرٍ وفيرٍ من الكفاءةِ والاقتدارِ، جلس على عرشِ القسطنطينيةِ فى وقتٍ عصيبٍ، فكان عليه أن يعيدَ ترتيبَ إمبراطوريتِه فى الداخلِ فى نفسِ الوقتِ الذى يُوَاجِهُ فيه الخطرَ الفارسىَّ الذى بات يهدِّدُ الوجودَ البيزنطىَّ أكثرَ من أىِّ وقتٍ مضى،





لوحه جصيه - مصر القرن السابع

وهو عندما أعلنَ ثورتَه على فوكاسَ بادرْنَا إلى الانحيازِ له ورَحَّبْنَا بمقْدمِ جنودِه بعدَ تتويجِه إمبراطوراً للبلادِ أملاً فى أن تنتهىَ بحكمِه سلسلةُ المتاعبِ التى عانَيْنَا منها خلالَ حكمِ الأباطرةِ السابقين، ولكنَّ كسرى الثانىَ لم يَكُنْ ليتيحَ لخَصْمِه فرصةَ الاستعدادِ والتجهيزِ، بل أسرعَ يشدِّدُ حملاتِه الحربيةَ على بيزنطةَ لتستولىَ جيوشُه على سوريا وفلسطينَ قبلَ أن تتمكَّنَ من غزوِ مصرَ عامَ ٦١٦.

فقلتُ له : أَجَلْ يانيلُ، فقد كنتُ فى القسطنطينيةِ حينما هَوَتْ أخبارُ سقوطِ مصرَ فى أيدى الفرسِ وانقطاعِ ماتُرْسِلُهُ من قمحِ الجزيةِ كالصاعقةِ على رؤوسِ القادةِ البيزنطيين، إذ لم يَكُنْ لديهم حينئذٍ من الموارِدِ أو القواتِ العسكريةِ مايكفى لمواجهةِ التهديدِ الفارسىِّ، لكنَّ هرقلَ لم يلتَفِتْ إلى كلِّ ما يحاصرُه من صعوباتٍ، وظلَّ يواجِهُ موقفَ الإمبراطوريةِ الحرجَ بثباتٍ واقتدارٍ، فبدلاً من أن يغامرَ بتصعيدِ حدَّةِ القتالِ مع الفرسِ، راح يتجنَّبُ الدخولَ معهم فى معركةٍ كبيرةٍ فى ذاتِ الوقتِ الذى أسرع فيه يجمعُ قوَّاتِه ويعدُّها

للقتالِ، حتى إذا ما اطمئنَّ تماماً إلى قوَّتِه لم يلجأْ إلى الاصطدامِ بجيوشِ أعــــدائِه المتـــوغلةِ فى أراضـى إمبراطوريَّتِه، وفضَّلَ مهاجمتَهم فى قلبِ بلادِهِمْ لتلقَى فــارسُ على يَدَيْهِ سلسلةً متـتاليةً من الهزائمِ كانت خاتمتُها هزيمتَها المدويةَ فى معركةِ نِينَوَى فى نهايةِ عامِ ٦٢٧، وقد كان من نتائجِ هذه المعركةِ أن عُزِلَ كسرى الثانى وقُتِلَ بيدِ ابْنِه شِيرَوِيهِ الذى تولَّى الحكمَ من بعدِهِ مفضِّلاً عقدَ الصلحِ مع الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ، وبمقتضى ذلك الصلحِ استردَّتْ بيزنطةُ جميعَ أراضيها التى كان قد احتلَّها الفرسُ ومن بينهما مصرُ.

فــقــال : لم يَدُمِ احْتِلاَلُ الفــرسِ لأرضِنَا أكـثـرَ من عـشـرةِ أعـوامٍ، اتصفت بتعـدُّدِ الاضطراباتِ وتفشِّى الفوضى، ولكن بلادَنا ما كادت تعودُ إلى حكمِ هرقلَ حتى ظهر أنه لايختلفُ عن أباطرةِ رومـا أو القـسطنطينيـةِ السابقين، مجردُ حاكمٍ أجنبىٍّ لايهمُّه من أمرِ مصرَ سوى صالحِ عَرْشِهِ وخَزَائِنِه، فما إن تَخَلَّصْنَا من الاحتلالِ الفارسىِّ حتى بادرَ هرقلُ بتعيينِ المقوقسِ واليًا علينا مَانِحًا إياهُ سلطةً مطلقةً للتصرفِ فى جميعِ شئونِنَا، ومازلنا حتى اليومِ نعانى من تعسُّفِ ذلك الوالى وتعنُّتِهِ الذى لم يَزِدْنَا إلا كرهًا لبيزنطةَ وحكامِهَا.

فــقلتُ له : لقــد خـــرجت الإمبراطوريَّتَانِ الفارسيةُ والبيزنطيةُ من سلسلةِ الحروبِ الضاريةِ التى جَرَتْ بينهما دونَ أن تقدرَ إحداهما على إسقاطِ الأخرى أو النجاحِ فى السيطرةِ على أراضيها، وفى الوقتِ الذى كانت فيه المعاركُ قد أنهكَتْ تروسَ المَيْكَنَةِ الحــربيـــةِ لكلتـــا الإمبراطوريتين على حدٍّ سواءٍ، ظهرت القوةُ العربيةُ ونجحَتْ حتى الآنَ فى التصدِّى لهما وإحرازِ الانتصاراتِ على جيوشِهِمَا.





هرقل - عملات فضيه

فقال : لابدَّ وأنك تعلمُ الكثيرَ عن هذه المعاركِ التى دارَتْ بين العربِ من جانبٍ وفارسَ وبيزنطةَ من جانبٍ آخَرَ، أليس كذلك؟

فقلتُ له : بلَى يانيلُ، ففى عام ٦٢٩ أرسل النبىُّ «صلى الله عليه وسلم» حملةً حربيةً من ثلاثةِ آلافِ مقاتلٍ إلى الحدودِ البيزنطيةِ لتأمينِهَا، ثم عاد فقادَ بنَفْسِهِ فى العامِ التالى حملةً مشابهةً وصل فيها برجالِهِ إلى تَبُوكَ، ولكنَّ هذه الحملاتِ الصغيرةَ لم تَكُنْ لتثيرَ اهتمامَ وقلقَ أباطرةِ بيزنطةَ الذين نظروا لها نفسَ نَظْرَتِهِمْ إلى غاراتِ البدوِ الرُّحَّلِ التى اعتادت الإغارةَ على حدودِ إمبراطوريَّتِهِمُ الشرقيةِ من آنٍ لآخَرَ، وفى عهدِ الصدِّيقِ أبى بكرٍ تأكدت سيطرةُ المدينةِ على أغلبِ بقاعِ شبهِ الجزيرةِ العربيةِ لينطلقَ من بَعْدِهِ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بْنُ الخطَّابِ يرسلُ بجيوشِهِ إلى الشرقِ والغربِ ويحقِّقُ بسيوفِ جُنُودِهِ أروعَ الانتصاراتِ وأكثرَهَا فاعليةً وتأثيراً، ففى الجبهةِ الشرقيةِ استطاعَتِ الجيوشُ بعدَ عدةِ مواجهاتٍ خاطفةٍ أن تقضِيَ على حكم

الأسرةِ الساسانيةِ وتزيلَ مُلْكَهُمْ فى العراقِ وإيرانَ عقبَ انتصارِهَا الحاسمِ فى معركةِ القادسيةِ واستيلائِهِمْ على المدائنِ عاصمةِ الإمبراطوريةِ الفارسيةِ عامَ ٦٣٧، وفى الغربِ اصطدمَتْ جيوشُ العربِ بالإمبراطوريةِ البيزنطيةِ ليكونَ انتصارُهَا فى موقعةِ اليرموكِ عامَ ٦٣٦ نقطةَ تحوُّلٍ فتحَتْ لهم أبوابَ التقدُّمِ والفتحِ، إذ اضطر هرقلُ أمامَ ذلك الانتصارِ إلى التراجعِ والتخلِّى عن أراضى سوريا التى لم يَكُنْ قد مضى على استردادِهِ لها من أيدى الفرسِ إلا زمنٌ قصيرٌ.

فقال: وبعدَ استيلاءِ الجيوشِ العربيةِ على سوريا ولبنانَ توجَّهُوا صوبَ أرضِ فلسطينَ التى على الرغمِ من صمودِ جيوشِ بيزنطةَ فى الدفاعِ عنها نحوَ عامَيْنِ لم تَجِدْ بُدّاً من التسليمِ بالغلبةِ العربيةِ فى نهايةِ الأمرِ.

فقلتُ له : لقد تسلَّمَ ابنُ الخطابِ بنفسِهِ مفاتيحَ بَيْتِ المقدسِ مقدِّمًا لأهليها كافةَ ضماناتِ العفوِ والتسامحِ، وبعدَ الانتهاءِ من فلسطينَ أصبح فتحُ مصرَ ضرورةً لابدَّ من إنجازِهَا لتأمينِ سلامةِ ماتحقَّقَ من فتوحاتٍ، إذ إن بقاءَ مصرَ تحتَ سيطرةِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ يجعلُها مصدرَ تهديدٍ دائمٍ وقاعدةً يمكنُ أن تنطلقَ منها جيوشُ هرقلَ للثأرِ واستعادَةِ مافقدت، بل تهديدِ المدينةِ أيضًا.

فقال: إن أمنَ فلسطينَ ولبنانَ وسوريا يمثِّلُ مفتاحَ سلامةِ حدودِ مصرَ الشرقيةِ، كما أن ما يجرى على أرضِ مصرَ من أحداثٍ دائمًا ما يؤثِّرُ على سيرِ الحوادثِ فى هذه البلدانِ تأثيرًا واضحًا، وقد وَعَى الفراعنةُ والملوكُ والأباطرةُ عبرَ مئاتِ الأعوامِ السابقةِ هذه الحقيقةَ، لذلك غالبًا ما كانت تنتظمُ جميعُ هذه الأراضى تحتَ حكمِ إمبراطوريةٍ واحدةٍ،



وبطبيعةِ الحالِ أدرك العربُ تلك الحقيقةَ جيداً، فكان إدراكُهم لها أهمَّ الأسبابِ التى دفعَتْهُمْ إلى خوضِ المعاركِ على أرضِنَا.

فقلتُ له : ما حققته الدولةُ العربيةُ الناشئةُ من انتصاراتٍ وما أحرزَتْ من فتوحاتٍ فى زمنٍ قصيرٍ للغايةِ أمرٌ مدهشٌ يدعو للعجبِ، ولعلَّ السرعةَ التى تَمَّتْ بها هذه الانتصاراتُ وتلك الفتوحاتُ هى ماتجعلنى أتوقعُ انكسارَ القوةِ العربيةِ واختفاءَها من مسرحِ العالمِ فجأةً كما كان ظهورُها عليه فجأةً، وأظنُّ أن الجيشَ البيزنطىَّ فى مصرَ يمتلكُ من العددِ والعدةِ مايمكِّنُهُ من محاصرةِ الطوفانِ العربىِّ وإيقافِهِ.

فقال : إن عددَ جنودِ الجيشِ البيزنطىِّ فى بلادِنَا يُقَدَّرُ بنحوِ ثلاثينَ ألفَ جندىٍّ، غيرَ أن هذا العددَ على كثْرَتِهِ، إذا ماقُورِنَ بعددِ جنودِ جيشِ عمرِو بْنِ العاصِ تنقصُه الوحدةُ والانسجامُ ويفتقدُ جنودُه روحَ القتالِ والمغامرةِ بعدما اقتصر دَوْرُهُمْ فى مصرَ منذُ أعوامٍ طويلةٍ على القيامِ بأعمالِ الشرطةِ، يرهبون الزراعَ والصناعَ لانتزاعِ ما يُقَدَّرُ عليهم من ضرائبَ هنا أو يتصدَّوْنَ لثورةٍ صغيرةٍ

وتذمُّرٍ محدودٍ هناك، أما العربُ فقد قُدِّرَ لهم أن يتوحَّدُوا مستظلِّينَ برايةِ الإسلامِ الذى ألَّفَ بينهم وجعلَهم يضعون من مَوْتِهِمْ في سبيلِ الذودِ عن دولَتِهِمْ أمامَ أعينِهِمْ هدفًا وغايةً.

فقاطعتُه قائلاً: وما موقفُ جموعِ المصريين من المعاركِ التى تدورُ على أرضِهِمْ يانيلُ؟

فقال : لقد عَانَيْنَا من ضعفٍ وفسادِ الإدارةِ الرومانيةِ والبيزنطيةِ من بَعْدِهَا، حتى وصلت بلادُنا إلى حالةٍ حَرِجَةٍ من البؤسِ والفوضَى وأمام مثلُ هذه الحالةِ من الطبيعى أن يتطلَّعَ المصريون إلى التغييرِ أملاً فى حياةٍ أفضلَ، لذا ليس غريبًا أن يقفَ أغلبُهم فى جبهةِ العربِ مقدِّمينَ لهم العونَ والمساعدةَ بعد كلِّ ماعُرِفَ عنهم من فضائلِ العفوِ والتسامحِ، بينما فضَّلَ عددٌ قليلٌ منهم الوقوفَ إلى جانبِ بيزنطةَ ظنّاً منهم أن الغلبةَ لابدَّ وأن تكونَ لهم فى نهايةِ الأمرِ.

فقلتُ له : أَجَلْ، لابدَّ وأن تكونَ لبيزنطةَ الغلبةُ فى نهايةِ الأمرِ.

لم يعلِّقْ نيلٌ على كلماتى واكتفَى بأن راح ينظرُ إلىَّ نظرةَ شكٍّ وتعجبٍ، ولم يمتدَّ بنا الحديثُ أكثرَ من ذلك لأننا كنا قد اقتربنا من الجيشِ العربىِّ وأخذ كلٌّ منا طريقًا مختلفًا، حيثُ أسرعَ نيلٌ يتجاوزُ عَمْرَو بْنَ العاصِ وجنودَهُ ليستطلعَ أخبارَ المقوقسِ وجنودِهِ على الجبهةِ الأخرى، بينما فضَّلْتُ أنا السيرَ خلفَ جيشِ المسلمين أتابعُ تقدُّمَهُ إلى رأسِ الدلتا، وأمامَ حصنِ بابليونَ أقمتُ على مقربةٍ من مؤخرةِ ذلك الجيشِ أراقبُه وقد أطبقَ حصارَهُ حولَ الحاميةِ البيزنطيةِ التى تجمَّعَ جنودُها داخلَ حصنِهِمُ القوىِّ يصدُّونَ الهجماتِ الإسلاميةَ ويكبِّدُونَهَا الخسائرَ الفادحةَ الهجمةَ من بعدِ الأخرى، حتى إذا ما طال زمنُ

الحصارِ دونَ فائدةٍ أرسل عمرُو بْنُ العاصِ إلى أميرِ المؤمنين يخبرُه بما يدورُ ويستنجدُ به طالبًا العونَ والمددَ، ولم ينتظرْ عمرٌو ردَّ ابْنِ الخطَّابِ طويلاً إذ سرعانَ ما جاء له المددُ مكونًا من اثنَىْ عشرَ ألفَ جندىٍّ فى مقدمَتِهِمْ أربعةٌ من كبارِ صحابةِ رسولِ الله «صلى الله عليه وسلم» وهم الزبيرُ بْنُ العوَّامِ، وعبادةُ بْنُ الصَّامتِ، والمقْدَادُ بْنُ الأسودِ، ومسلمةُ بْنُ مُخَلَّدٍ، وبفضلِ هذا المددِ تمكَّنَ المسلمون من تشديدِ هجماتِهِمْ واقتحامِ الحصنِ بعدَ حصارٍ طويلٍ شاقٍّ، وما إن نجحوا فى اقتحامه حتى بادرَ المصريون بعقدِ الصلحِ بينما بعثَ المقوقسُ إلى الإمبراطورِ هرقلَ يستشيرُه فى أمرِ عقدِ المعاهدةِ بين العربِ والبيزنطيين، وجاء جوابُ هرقلَ يصبُّ اللعناتِ على رأسِ نَائِبِهِ ويأمرُه بتركِ التخاذلِ واستئنافِ القتالِ، وأمامَ جوابِ الإمبراطورِ اضطرَّ المقوقسُ إلى التراجعِ بجنودِهِ للإسكندريةِ ليتحصَّنَ بها مستفيدًا من اتصالهَا بالقسطنطينيةِ عن طريقِ الأساطيلِ البيزنطيةِ فى البحرِ المتوسطِ من جانبٍ ومحتميًا بمنعَتِها وقوةِ تحصيناتِها من جانبٍ آخَرَ، وبعدَ أن تَبِعَهُ عمرُو بْنُ العاصِ لِيَنْصِبَ حولَ الإسكندريةِ الحصارَ جاءت الأخبارُ تنبئُ عن عزمِ هرقلَ على القدومِ إلى مصرَ لتعزيزِ جيوشِهِ وقيادَتِها بنَفْسِهِ، عند ذلك لم أَجِدْ بُدّاً من معاودةِ البحثِ عن نيلٍ ليرى معى ماسوف يدورُ من معاركَ ظَنَنْتُها ستنتهى بانتصارِ بيزنطةَ وإثباتِ صحةِ

إحدى الرسائل المنسوبه إلى النبى (صلى الله عليه وسلم)

توقعى بانكسارِ القوةِ العربيةِ، وما إن عثرتُ عليه فى إحدى مدنِ غربى الدلتا حتى أسرعتُ أصطحبُه إلى الإسكندريةِ، وفى طريقنَا إليه توجهتُ إليه قائلاً: لقد تحصَّنَ جنودُ المقوقسِ خلفَ قلاعِ الإسكندريةِ عاصمةِ البلادِ التى إذا لم ينجحِ العربُ فى الاستيلاءِ عليها، فلا فائدةَ تُرْجَى من وضعِ أيديهم على سائرِ الأقاليمِ المصريةِ الأخرى، ومع عزمِ هرقلَ على قيادةِ المعاركِ بنفسهِ فإن انتصارَ بيزنطةَ أصبح حقيقةً واقعةً دون شكٍّ.

فارتفعَ صوتُه قائلاً: لقد أزال العربُ مُلْكَ الأسرةِ الساسانيةِ فى فارسَ وألحقوا بهرقلَ وجيوشِهِ حتى الآنَ من الهزائمِ ما يكفلُ لهم الاستمرارَ ويشهدُ لهم بالتفوقِ، وهذه هى الحقيقةُ الوحيدةُ التى لابد وأن تتذكَّرَهَا.

فقلتُ له غاضبًا: أعلمُ كلَّ ذلك، لكن ما تتحدَّثُ عنه من انتصاراتٍ سريعةٍ متواليةٍ لابد لها وأن تنتهىَ بكارثةٍ محققةٍ لأنها لم تستندْ إلى إعدادٍ جيدٍ وأساسٍ حضارىٍّ قوىٍّ.

فقال: لقد صنع الإسلامُ لأمةِ العربِ أساسًا حضارياً رائعًا وحولّها فى زمنٍ قياسىٍّ من أمةٍ مفككةٍ تحيا حياةَ الشدةِ والبدائيةِ إلى أمةٍ ناهضةٍ تتطلَّعُ إلى آفاقِ المدنيةِ والتحضُّرِ.

وقبلَ أن أنفجرَ من شدةِ الغضبِ، أسرعتُ أحوِّلُ مجرى حديثى مع ذلك الفتى المصرىِّ قائلاً: سترى صدقَ توقُّعِى قريبًا، ولكنْ دَعْنَا الآنَ من كلِّ ذلك فإنى إلى اليومِ لم أزَلْ أجهلُ الكثيرَ عمَّا أصابَ الحياةَ الثقافيةَ والفنيةَ فى مصرَ من تغيراتٍ خلالَ العهدَيْنِ الرومانىِّ والبيزنطىِّ.

فقال: حينما سقطَتْ مصرُ فى سلةِ الإمبراطوريةِ كانت اللغةُ اليونانيةُ هى اللغةَ الرسميةَ للبلادِ بها تُسَنُّ القوانينُ وتصدرُ القراراتُ والأوامرُ، ولم يسعَ الرومانُ إلى تغييرِ ذلكَ الوضعِ بل أبقَوْا عليه، لتظلَّ لغتُهم اللاتينيةُ قاصرةً

على جنودِ الحاميـاتِ الرومانيةِ دونَ غيرِهِمْ، أما المصريون فمنهم من أتقنَ اليونانيةَ وتعاملَ بها وخاصةً مَنْ تولَّى الوظائفَ العامةَ فى ظلِّ الإدارةِ الرومانيةِ، بينما حافظت الأكثريةُ العظمى فى المدنِ والقرى على لغتِهِم الديموطيقيةِ المتطورةِ عن الهيروغليفيةِ القديمة، ولتسهيلِ التعاملِ باللغةِ الديموطيقيةِ فِى العصرِ الرومانىِّ لجأنا إلى كتابَتِهَا بالحروفِ اليونانيةِ، ومن هنا وُلِدَتْ اللغةُ القبطيةُ التى بَقِيَتْ إلى اليومِ لغةَ التعاملِ السائدةَ على طولِ الوادى والدلتــا، وأنت تعلمُ بالطبعِ ماكانت للإسكندرية فى عصرِ البطالمةِ من مكانةٍ ثقافيةٍ جليلةٍ جعلتها بحقٍّ أشهرَ وأعظمَ مراكزِ المعرفةِ فِى العالمِ، وعلى الرغمِ من استمرارِ دارِ علومِ



قطعه نسيج مصريه – القرن السابع

الإسكندريةِ ومكْتَبَتِهَا فى العصرِ الرومانىِّ وتمتُّعِهَا فى أوقاتٍ ضئيلةٍ باهتمامِ بعضِ أباطرةِ رومـا كالإمبراطورِ هادريان، وكذلك تخريجُهُما للكثيرِ من نوابغِ المصريين كالفيلسوفِ والرياضىِّ الشهيرِ أفلوطين وعالمِ الجغرافيا والفلكِ البارعِ بطليموس(١) ، فإن مصرَ والإسكندريةَ قد فقدَتَا فى ذلك العصرِ الكثيرَ من المكانةِ والشهرةِ الثقافيةِ التى كانت لهما فى العصرِ البطلمىِّ.

فقلتُ له : وما الذى حدث لهذه المكانةِ الثقافيةِ والحضاريةِ فى العصرِ البيزنطىِّ يانيلُ؟

فقال: كان من الطبيعىِّ مع سَيْرِ جميعِ شئونِ بلادِنَا تحتَ الحكمِ البيزنطىِّ صوبَ التدهورِ والفوضى أن

(١) وضع بطليموس المصرى في القرن الثانى الميلادى واحدة من أول الخرائط التى عرفها العالم للكرة الأرضية .

تواجهَ حياتُنَا الثقافيةُ المزيدَ من العثرات، لتعيشَ مصرُ فى ذلك العصرِ فترةً مظلمةً كادت أن تخبُوا فيها مشاعلُ تحضُّرِهَا التى ظلَّتْ تُنيرُ لها وللعالمِ مِن حَوْلِهَا طريقَ المدنيةِ والتقدمِ منُذ عهودِ فراعِنَتِهَا العظامِ، ومن أهمِّ أحداثِ هذه الفترةِ تعرُّضُ مكتبةِ الإسكندريةِ للتدميرِ فى عهدِ أسرةِ الإمبراطورِ ثيودوسيوسَ مما نتجَ عنه ضياعُ عددٍ كبيرٍ من أهمِّ وأنفسِ المخطوطاتِ العلميةِ والأدبيةِ التى تميَّزَتْ بها هذه المكتبةُ.

فقلتُ له : وهل أصاب فنونَ مصرَ نفسُ ما أصاب علومَهَا من تدهورٍ فى العصرَيْنِ الرومانىِّ والبيزنطىِّ؟

فقال : أجَلْ يا أبتى، فقد اختفَى فى العصرِ الرومانىِّ ذلك الطابَعُ المصرىُّ المتفرِّدُ الذى كان يمثِّلُ سمةً مميزةً لأكثرِ فنونِنَا حتى نهايةِ العصرِ البطلمىِّ، وساد الذوقُ والطابَعُ اليونانىُّ الرومانىُّ فى الأعمالِ القليلةِ التى خرجت من أرضِنَا، فعدا المدينةَ التى شيَّدَهَا الإمبراطورُ هادريانُ فى شمالِ الصعيدِ والتى تُعْرَفُ باسمِ أنطونيو بولس اقتصر دورُ الأباطرةِ الرومانيين فى فنونِ العمارةِ على إضافةِ بعضِ أجزاءٍ صغيرةٍ للمعابدِ البطلميةِ القديمة، وإذا كان هذا هو حالُ الفنونِ المصريةِ فى العصرِ الرومانىِّ، فإن الأمرَ لم يكنْ ليزدادَ إلا سوءًا فى العصرِ البيزنطىِّ لولا ظهورُ المسيحيةِ واتخاذُها دينًا رسمياً للإمبراطوريةِ، إذ نشطت فنونُ العمارةِ من جديدٍ بتشييدِ الكنائسِ التى حَوَتْ بين جنباتِهَا الكثيرَ من روائعِ الأعمالِ الفنيةِ الحجريةِ والخشبيةِ والمعدنيةِ أيضًا، كما تعتبرُ زخرفةُ المنسوجاتِ بأنواعِهَا فى ذلك العصرِ من أهمِّ الفنونِ التى عبرت عن الشخصيةِ المصريةِ بإتقانٍ وتميُّزٍ.

ولاحت الإسكندريةُ التى ما كدنا نصلُ إليها حتى فوجِئْتُ بِنَبَإٍ وفاةِ الإمبراطورِ هرقلَ، وبوفَاتِه قبلَ إتمام

عَزْمِهِ على القدومِ إلى مصرَ ساءَتْ أحوالُ الجيوشِ البيزنطيةِ المحاصَرَةِ خلفَ الحصونِ، كما اضطربت شئونُ الإمبراطوريةِ فى القسطنطينيةِ بعدَ ما تقاسمَ ابنا الإمبراطورِ الراحلِ الحكمَ، وتسارعت الأحداثُ أمامَ عينىَّ، عملٌ عربىٌّ لايكلُّ وتصميمٌ لايلينُ على تخليصِ الإسكندريةِ من أيدى أعدائِهِمْ، وفتنٌ بيزنطيةٌ تشتعلُ فى عاصمةِ الإمبراطوريةِ وتنازعٌ يحتدمُ بين قوادِ جيوشِهَا فى مصرَ، ولم أُفِقْ من تَتَبُّعِ كلِّ هذه الأحداثِ إلا على المقوقسِ وهو يذهبُ إلى عَمْرِو بْنِ العاصِ طالبًا الصلحَ وعقدَ المعاهدة، ففى شهرِ نوفمبرَ من عامِ ٦٤١ عُقِدَتْ بين العربِ والبيزنطيين معاهدةٌ نَصَّتْ على أن يكفَّ الطرفان عن مواصلةِ القتالِ أحدَ عشرَ شهرًا بشرط أن يتمَّ جلاءُ الجيوشِ البيزنطيةِ عن الإسكندريةِ جلاءً تامًّا، وهكذا تَمَّ للعربِ فتحُ جميعِ الأراضى المصريةِ ليزدادَ موقفُهم بفتحِهَا ثباتًا وتزدادَ دولتُهم بضعفِ بيزنطةَ وقهرِهَا قوةً.

ولأننى كنت حينئذٍ قد تأكَّدْتُ

جبال الحجاز



تمامًا من خطإٍ توقُّعِى وجــهلى بما جرى فى بلادِ العربِ من تغيراتٍ مُنذُ ظهورِ الإسلامِ بسببِ أنشغالى عنها وعدمِ زيارتى لها، لم أنتظرْ مشاهدةَ رحيلِ الجيوشِ البيزنطيةِ عن مصرَ وفـضَّلْتُ الإسـراعَ من فـورى إلى المدينةِ عاصمةِ الإمبراطوريةِ العربيةِ الناشـئـةِ لأعلمَ مـالم أعلمْهُ عنهـا من جانبٍ، ولأتفادى مقابلةَ نيلٍ من جانبٍ آخَرَ.



أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



للمكتب العربى المعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى

ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة

ت : ٢٤٢١٥٢٦

الناشر



